فوائد من تفسير سورة آل عمران

للعلامة ابن عثيمين رحمه الله ..

تفسير مطبوع في مجلدين .. الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ .. دار ابن الجوزي ..

جمع الشيخ / فهد بن عبدالله الجريوي

فوائد من المجلد الأول :

==========

١ ـ قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) فـ (أنا) هنا ضمير . فعلى هذا نقول : (أنا) و (هو) في قوله : (لا إله إلا أنا) وقوله : (لا إله إلا هو) كلاهما ضمير رفع منفصل . فكما أن الذاكر لا يجعل (أنا) اسماً لله ، فلا يجوز أن يجعل (هو) اسماً لله ، وبهذا نعرف بطلان ذكر الصوفية الذين يذكرون الله بلفظ : هو هو . ويرون أن هذا الذكر أفضل الأذكار ، وهو ذكر باطل . ص٧ .

٢ ـ قال تعالى : (والله عزيز ذو انتقام) عزيز : أي : ذو العزة ، وهي ثلاثة أصناف :

أ . عزة القدر

ب . عزة القهر

ج. عزة الامتناع .

عزة القدر : بمعنى أن الله ذو قدر شريف عظيم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (السيد الله) هذه عزة القدر .

عزة القهر : بمعنى أنه القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، بل هو الغالب . قال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) .

عزة الامتناع : أي : أنه عز وجل يمتنع أن يناله سوء أو نقص ، ومن هذا المعنى قولهم : هذه أرض عزاز ، أي : صلبة قوية لا تؤثر فيها المعاول . ص١٥ ـ ١٦ .

٣ ـ قال تعالى : (والله عزيز ذو انتقام) هنا قال : (ذو انتقام) ولم يقل (ذو الانتقام) . وفي الرحمة قال : (وربك الغفور ذو الرحمة) ولم يقل : (ذو رحمة) وإن كان قد قال في آية أخرى : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) لأن الانتقام ليس من أوصاف الله المطلقة ، وليس من أسماء الله المنتقم . فـ (المنتقم) لا يوصف الله به إلا مقيداً ؛ فيقال :
المنتقم من المجرمين ، كما قال تعالى : (إنا من المجرمين منتقمون) أما (ذو انتقام) فهي لا تعطي معنى الانتقام المطلق ؛ لأن (انتقام) نكرة ، فلا تعطي المعنى على الإطلاق ، بل له انتقام مقيد بالمجرمين ونحوهم .

وبهذا نعرف أن الأسماء المسرودة في الحديث الذي رواه الترمذي لا تصح عن النبي ، لأنها ذُكر فيها من أسماء الله المنتقم ، وهذا لا يصح ، وحُذِف من أسماء الله ما ثبت به الأحاديث فلم يُذكر فيها مثل : الشافي ، والرب . ص١٦ .

٤ ـ القلب هو هذا الجزء المستقر في الصدر ، لقول الله تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وبهذا القلب يكون العقل ؛ لقوله تعالى : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ، وبناء على هذه الأدلة يتبين أن العقل في القلب وليس في الدماغ ..

والعلماء اختلفوا قديماً وحديثاً ، هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب ؟
والذي دل عليه القرآن أنه في القلب ، والقرآن كلام الخالق ، والخالق أعلم بما خلق . فالعقل بالقلب لكن عقل القلب هو عقل التصرف والتدبير ، ليس عقل الإدراك والتصور ، فإن عقل الإدراك والتصور يكون في المخ . فالمخ يتصور

ويعقل ، وهو بمنزلة المترجم للقلب يشرح ما يريد رفعه إلى القلب ، ثم يرفعه إلى القلب ، ثم يصدر القلب الأوامر ، والذي يبلغ الأوامر الدماغ . ولهذا تنشط العضلات كلها بنشاط الدماغ ، فصارت المسألة سلسلة ، والذي يتصور ويدرك وفيه عقل الإدراك هو الدماغ ، وأما عقل التصرف والتدبير والرشاد والفساد فهو عقل القلب . وحينئذ يزول الإشكال ، و تجتمع الأدلة الحسية والشرعية ، فالعقل الإدراكي محله هو الدماغ ، والعقل التصرفي الإرشادي الذي به الرشاد والفساد هو القلب . ص٥١ .

٥ ـ الإنسان مهما بلغ من الصدق فإن عرضه الأمثال الواقعة تجعل كلامه حق اليقين . والمراتب ثلاثة :

علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين : هو خبره الصادق .

عين اليقين : ما تراه بعينك مشاهداً .

حق اليقين : ما تدركه بحسك .

فإذا قال لك قائل : في جيبي تفاحة ، وهو رجل صادق ، فالذي أدركت من وجود التفاحة علم اليقين ، فإذا أخرجها ونظرت إليها فهذا عين اليقين ، فإذا أكلتها فهو حق اليقين ، لأن هذا هو الواقع . ص٨٢ .

٦ ـ هنا ننبه أن كثيراً من الكُتّاب اليوم إذا تكلموا عن اليهودية والنصرانية والإسلام ، يقولون : هذه الأديان السماوية .

فيظن السامع أن دين اليهود قائم ، وأن دين النصارى قائم ، كقيام دين الإسلام . وهذا لا يصح ، فإن هذه الأديان أديان سماوية بلا شك ، لكنها حرفت ، وبدلت ، وغيرت ونسخت ببعثة محمد فليست ديناً يرتضيه الله اليوم ، بل المتمسكون بها كفار ، لا يعدون من المسلمين . ص١٢٤ .

٧ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله) المسكين : كل من لا يكتسب ، حتى ولو كان من أولادك ؛

فلو أنت غني ، وولدك لا يكتسب فهو مسكين ، فأنت إذا سعيت عليه كالمجاهد في سبيل الله ، قال :
وأحسبه قال : (كالصائم لا يفطر ، وكالقائم لا يفتر) . ص١٦٦ .

٨ ـ الإنسان الذي هداه الله للإسلام ليس أحد من الناس مثله في النعمة إلا من أنعم عليه بها . فأنت في الحقيقة تحب الله نفسه لذاته ولما أنعم عليك به من النعم ، وليست محبة الله كمحبة الزوجة أو كمحبة الطعام ، أو كمحبة الشراب ، أو كمحبة اللباس ، أو كمحبة السكن ، أو كمحبة السيارة ؛ كلا فإن محبة الله لا يشبهها شيء ، وجرب تجد ، اجعل قلبك صافياً يوماً من الدهر وصلّ وكن متصلاً بالله في صلاتك تجد شيئاً لا يخطر بالبال ، وتجد شيئاً يبقى أثره مدة طويلة وأنت تتذكر تلك اللحظة التي كنت فيها متصلاً بربك . ص١٩٥ .

٩ ـ قال تعالى في شأن مريم عليها السلام : (فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) ..

تأمل أنه قال : من القانتين ، ولم يقل : من القانتات ؛ لأنه كما جاء في الحديث : (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا قليل) ص٢٢١ .

١٠ ـ المحراب مفعال من الحرب ، وهو مكان العبادة ، وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند الناس ، ورأيت في بعض المساجد مكتوب على طاق القبلة على القوس (كلما دخل عليها زكريا المحراب) يجعلون الإمام مريم وهم لا يشعرون ، ويخطئون أيضاً في المعنى ؛ لأن المحراب مكان العبادة سواء كان طاقاً أو مربعاً أو حجرة ، ولهذا قال الله تعالى في قصة داود : (إذ تسوروا المحراب) وسمّي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان . ص٢٢٣ .

١١ ـ قال تعالى : (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

يستفاد من هذه الآية تسمية المولود حين يولد ؛ لقولها : (وإني سميتها مريم) وهذا هو السنة ، أن يسمى الإنسان حين يولد إلا إذا لم يتهيأ الاسم فإنه يسمى في اليوم السابع ، وبهذا تجتمع الأدلة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما ولد إبراهيم قال : (ولد لي الليلة ولد وسميته إبراهيم) .

وفي حديث العقيقة قال : (تذبح يوم سابعه ، ويحلق ويسمى) فيكون الجمع أن من كان مهيأ الاسم قبل الولادة فالأفضل أن يسميه حال الولادة ، ومن لم يهيأ فالأفضل أن يؤجله إلى اليوم السابع . ص٢٢٩

١٢ ـ قال تعالى : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) .

(حصوراً) فعول بمعنى فاعل أي حاصراً نفسه عن أراذل الأخلاق ، فيكون هذا المبشر به موصوفاً بصفات الكمال الدال عليها قوله : (سيداً) ومبرأً من النقص وسوء الأخلاق الدال عليه قوله : (حصوراً) فيكون جمع له بين النفي والإثبات ، وذلك لأن الإنسان لا يكمل إلا بوجود صفات الكمال وانتفاء صفات النقص ، وهو أمر نسبي .

وأما من قال من المفسرين :

إن الحصور هو الممنوع عن إتيان النساء يعني لا يستطيع على النساء ؛ فإن في هذا نظراً واضحاً ؛ لأن عدم قدرة الإنسان على النساء ليس كمالاً إذ أن ذلك ليس منه بتخلق ولكنه عيب .وفيها قول آخر : أنه لا يأتي من النساء من لا تحل له فيكون وصفاً له بكمال العفة ، وهذا يمدح عليه الإنسان . لكن ما قلناه أشمل من هذا القول . ومعلوم أنه إذا وجد معنى أشمل فهو مقدم على المعنى الأقل ؛ لأن الأقل داخل في الأشمل لا العكس .ص٢٣٥ .

١٣ ـ قال تعالى : (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) .

في هذه الآية دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل مطلق الذرية ؛ لأن الذرية قد يكونون نكداً وفتنة ، وإنما يسأل الذرية الطيبة . ص٢٣٨ .

١٤ ـ قال تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) .

في الآية بيان أنه كلما منّ الله على إنسان بشيء كانت مطالبته بالعبادة أكثر ؛ لأن الملائكة لما قالت : (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) ، أمرتها بالقنوت والسجود والركوع ، فدل هذا على أنه ينبغي للإنسان كلما ازدادت عليه نعم الله أن يزداد على ذلك شكراً بالقنوت لله والركوع والسجود وسائر العبادات . ص٢٦٠ .

١٥ ـ قال تعالى في شأن زكريا عليه السلام وابنه يحيى : (قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء) وقال تعالى في شأن مريم وابنها عيسى : (قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء) .

عبر في قصة مريم بالخلق وفي قصة زكريا بالفعل (يفعل) ، فهل هناك نكتة أو أنه اختلاف تعبير ؟..

الجواب : أن هناك نكتة ، وهي من وجهين :الوجه الأول : مما قاله العلماء وهو صحيح أن عيسى عليه الصلاة والسلام خلق من غير ما جرت العادة به ، خلق على وجه لم تجر العادة بمثله إطلاقاً ، فناسب التعبير بالخلق الدال على الإبداع ، ولهذا يقال : خلق الله السماوات ، ولا يقال : فعل الله السماوات ، مع أن الخلق فعله لكن الخلق فيه نوع من الإبداع ولذلك قال : (خلق) . الوجه الثاني : الرد على شبه النصارى الذين يقولون : إن عيسى هو الله ، والله ثالث ثلاثة ، فيكون فيه التصريح بأنه مخلوق ، ويكون هذا قطعاً لدابر قولهم فيه ، إذن نكتة كونية ونكتة شرعية يعني حكمة كونية شرعية . ص٢٨٠ .

١٦ ـ قال تعالى في بيان معجزات عيسى عليه السلام : (وإذ تخرج الموتى بإذني) في هذه الآية إشكال ، وهو أن الله تعالى قال لعبدالله بن حرام ((بعد أن استشهد وطلب الرجوع للدنيا)) : (إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون) ، وهنا ذكر أنه أحيا الموتى لعيسى في الدنيا ، الظاهر والله أعلم أن يقال : إن عبد الله بن حرام طلب الرجوع من أجل العمل ، وأما ما وقع آية لعيسى فليسوا يرجعون على أنهم يعملون ، على أن المسألة فيها أيضاً نظر من جهة أخرى ؛ لأن الله تعالى لما أخذت الصاعقة أصحاب موسى الذين كانوا معه دعا الله عز وجل فبعثهم من بعد

موتهم وبقوا وعملوا . فيكون المراد ـ والله أعلم ـ أنه إذا لم يكن هناك سبب مثل أن تكون آية فهذا لا مانع ، أما عبدالله بن حرام فليس هناك سبب . ص٢٨٩ .

١٧ ـ قال تعالى : (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) آيات عظيمة ، فآياته كثيرة كل آية فيها عدة آيات ، ولكن لا يفهم هذه الآيات إلا من فتح الله له قلبه بالإيمان والعمل ، واعتقد أن هذا القرآن كلام الله وأن فيه آيات بينات ، أما الذي تمر عليه مثل هذه الجملة من الآيات مر الكرام ، ولا يتحرك بها قلبه ، ولا يتأمل هذه الآيات ؛ فإنه لا ينتفع بما في القرآن من الآيات ، لابد أن تؤمن بأن فيه آيات وأن تحاول استخراج هذه الآيات بالتدبر ، والإنسان إذا تدبر القرآن وجد فيه آيات عظيمة لا يحصيها البشر . ص٣٤٩ .

١٨ ـ قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة) البشر هو الإنسان من بني آدم ، وسمي بشراً لظهور بشرته . فإن بشرة الإنسان ظاهرة بارزة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف بادية .

وقيل : سمي بشراً لظهور أثر البشارة عليه فيما إذا أخبر بما يسره ، ولا مانع من أن يكون سمي بشراً لهذا ولهذا ، والحكمة من أن الله جعل الآدمي بارز البشرة ليعلم الآدمي أنه مفتقر إلى اللباس الحسي ، فينتقل من ذلك إلى العلم بأنه مفتقر إلى اللباس المعنوي وهو التقوى . وأنه بحاجة إلى أن يعمل الأسباب التي تستره معنى كما هو يعمل الأسباب التي تستره حساً . ص٤٥٠ ـ ٤٥١ .

١٩ ـ قال تعالى : (قل ءامنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

الخطاب في هذه الآية للنبي . والخطاب للنبي خطاب له وللأمة ، ما لم يقم دليل على أنه خاص به .

والمتأمل في الخطاب الموجه للنبي يتبين له أنه على ثلاثة أقسام :

قسم دل الدليل على أنه خاص به فهو له ، يختص به ، مثل قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) ، وقوله : (ألم نشرح لك صدرك) .

وأما ما دل الدليل على العموم ، فهو على العموم ، مثل قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة) .

وما سوى ذلك فإنه يكون عاماً له وللأمة ، لكن وجه الخطاب إليه باعتباره الإمام لأمته عليه الصلاة والسلام . والخطاب الموجه للإمام موجه له ولمن كان مؤتماً به . ص٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

٢٠ ـ اعلم أن شريعتنا في الأحكام بالنسبة لمن سبق على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما وردت شريعتنا بخلافه فهذا لا نعمل به ؛ لأن شريعتنا ناسخة لجميع الأديان ، مثال ذلك : القصاص في النفس والأطراف كان في التوراة واجباً مفروضاً ، ولا عفو ، لكن في الشريعة الإسلامية كان مخيراً فيه ، فنتبع القرآن .

القسم الثاني : ما ورد شرعنا بوفاقه فإننا نعمل به اتباعاً لشريعتنا المصدقة لما سبق من الشرائع ، ولا نخالفه ، وهذا كثير ، مثل الطيبات ، أحل الله الطيبات لنا ولغيرنا ، لكن حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم .

القسم الثالث : ما لم يرد في شرعنا له وفاق ولا خلاف . هذا محل نزاع بين أهل العلم ، وبحثه موجود في أصول الفقه ، فمن العلماء من قال : إنه شرع لنا ، ومنهم من قال : إنه ليس بشرع ، والصحيح أنه شرع لنا ، لدلالة شرعنا عليه . قال الله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك)

وقال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

وكذلك النبي أحياناً كان يسند الحكم أنه فعله أخي فلان من الأنبياء ، وما أشبه ذلك ، والمعنى يقتضي ذلك أيضاً ، لأنه لولا أن لنا فائدة من قصص الأنبياء السابقين ـ ومن الفوائد أن نعتبر ونعمل بما عملوا ـ لم يكن لذكر هذه القصص من الفائدة كثير . ص٤٩١ ـ ٤٩٢ .

٢١ ـ إن المؤمن إذا تعارض عنده أمر الله وأمر الخلق قدم أمر الله مهما كان الآمر ، حتى أبوك وأمك لو أمراك بخلاف أمر الله فقدم أمر الله .

لو قالت لك أمك : يا بني لا تخرج لصلاة الفجر ، فالمسجد بعيد ، ويخشى عليك من كلب ، لا تذهب فلا تُطاع . ولو قال لك أبوك : يا بني لا تطلب العلم ، فهل الإنسان يمتثل أمر أبيه في هذه الحال ؟ لا . ومن أحسن ما رأيتُ في هذا الموضوع ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله : (إنه لا تجب طاعة الوالدين في ترك أمر ينفعك ولا يضرهما) .

هذا كلام جيد يكتب بماء الذهب ، فكل شيء ينفعك ولا يضر والديك فإنه لا تجب طاعتهما فيه . كما لو طلبت العلم . ولا يرد على هذا مسألة الجهاد ـ أن بر الوالدين أفضل من الجهاد ـ لأن الجهاد فيه تعريض للنفس بالقتل ، والقتل يقلق راحة الوالدين . ص٤٩٣ ـ ٤٩٤ .

٢٢ ـ هذا الدين الإسلامي ليس فيه عصبية ، ولا يجوز أن يتخذ الإسلام منه عصبية ؛ لقوله تعالى : (لا نفرق بين أحد منهم) بخلاف ما يسلكه بنو إسرائيل حيث لا يؤمنون إلا بما جاء عن أنبيائهم فقط . أما الدين الإسلامي فـ (لا نفرق بين أحد منهم) ..

كلهم عندنا رسل الله ، لكن نفرق في العبادات ، لا نتعبد إلا بما أُمرنا بالتعبد به ، و يذكر أن شخصاً حاج عالماً من علماء المسلمين ، فقال له : لماذا تُجيزون لأنفسكم أن تتزوجوا ببناتنا ، ولا تُجيزون لنا أن نتزوج ببناتكم ، فقال له العالم : لأننا نؤمن برسولكم ولا تؤمنون برسولنا ، فألقمه حجراً . ص٤٩٥ .

٢٣ ـ قال تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية ولو مرة واحدة ، إذا أعجبه شيء من ماله فليتصدق به لعله ينال هذا البر . ص ٥٢٦ .

٢٤ ـ تقدم المكان في العبادة له أثر في تفضيله ؛ لقوله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) .

وهذا يراد به التفضيل ، ولهذا قال العلماء :

إن المسجد الأسبق في إقامة الجماعة فيه أفضل من المسجد الحديث . فإذا كان حول الإنسان مسجدان الأول قديم ، والآخر جديد ، ولم يتميز أحدهما عن الآخر بفضيلة أخرى ، فإن القديم أفضل من الجديد لسبقه من العبادة فيه . ص٥٥٦ .

فوائد من المجلد الثاني :

==========

١ ـ قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد جاءهم البينات) .

قوله : (كالذين تفرقوا) : أتى بها بعد قوله : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)

لأن الأمة إذا تركت الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد أن تتفرق ؛ لأنه لا يكون لهم في هذه الحال كلمة جامعة ، كل واحد يعمل على هواه لأنه ما يُدعى إلى الخير ، والنفوس لها نزعات متباينة مختلفة ، وكذلك أيضاً إذا لم يكن أمر بمعروف ولا نهي عن منكر تفرق الناس ولا بد ؛ لأن هذا يريد الزنا ، وهذا يريد شرب الخمر ، وهذا يريد السرقة ، وهذا يريد أشياء غير الأولى فيحصل التفرق ، فإذا أمروا بالمعروف صاروا كلهم على المعروف ، وإذا نهوا عن المنكر صاروا كلهم على ترك المنكر . ص٨ ـ ٩ .

٢ ـ من أحسن ما أُلف في الجمع بين الآيات المتعارضة كتاب محمد الأمين الشنقيطي المسمى (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وهو كتاب جيد ومفيد لطالب العلم . ص٣١ .

٣ ـ قال عن اليهود : (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءو بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة)

الضارب هو الله تعالى ، والمسكنة هي الفقر ، فهم أذلاء ليس عندهم شجاعة ، فقراء ليس عندهم غنى ، ولكن يجب أن نعلم أن الغنى ليس كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس والقلب ، فهؤلاء قد ضربت عليهم المسكنة ، فهم دائماً في فقر حتى ولو حصّل الإنسان منهم ملايين الملايين فهم في فقر ، ولذلك حتى الآن نجد أن اليهود أحرص الناس على المال ، وأنهم لا يمكن أن يبذلوا فلساً إلا وهم يؤملون أن يحصلوا درهماً ، ولا يبذلون درهماً إلا ويؤملون أن يحصلوا ديناراً ، وهذه حالهم صاروا أغنى العالم إن لم نقل هم أغنى العالم ، لكنهم أغنى العالم بكثرة العرض لا بالقلب والنفس ، فهم أشد الناس فقراً . ص٦٦ ـ ٦٧ .

٤ ـ ذكر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بهذه الغزوة العظيمة (أحد) التي فيها من الأسرار والحكم ما يتبين به أن ذلك هو عين الصواب وعين الخيرة للمؤمنين ، وقد ذكر الحافظ ابن القيم ـ رحمة الله عليه ـ في كتابه (زاد المعاد) من الحكم في هذه الغزوة ما لا تجده في أي كتاب آخر ، فتحسن مراجعته فإنه مفيد . ص١٠٩ .

٥ ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع) . ولهذا يجد بعض الناس إذا أراد التثاؤب شدة عظيمة في منع فتح فمه ، مع أن المشروع أن تكظم ولا تفتح الفم ، وقد ذكر بعض العلماء شيئاً ييسر لك الكظم ، قال : إذا أصابك التثاؤب فعضّ شفتك السفلى . ص١٧٢ .

٦ ـ قال تعالى : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) .

قوله : (لا يحب الظالمين) قد يبدو غريباً على القارئ مناسبة هذه الجملة لما قبلها (ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) كيف هذا ؟..

فيقال : الجواب من وجهين :

الوجه الأول : أن المراد بقوله : (والله لا يحب الظالمين) بيان أن الذين تخلفوا عن غزوة أحد ، وهم مقدار ثلث الجيش لم يكن منهم شهيد ؛ لأنهم نجوا بأنفسهم ، فلكونهم ظلمة لم يتخذ الله منهم شهداء ، فيكون ذلك تنديداً بالذين تخلفوا ورجعوا من أثناء الطريق ، وهم عبدالله بن أبي ومن تبعه من المنافقين ، فكأنه قال : اتخذ منكم أيها الصفوة شهداء ولم يتخذ من أولئك الذين نكصوا على أعقابهم ؛ لأن هؤلاء ظلمة والله لا يحبهم .

الوجه الثاني : أن الذين قتلوا في أحد ؛ قتلوا على أيدي المشركين ، والمشركون هم الظالمون كما قال تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) فهل انتصار الظالمين في أحد ، واستشهاد من استشهد من المسلمين في أحد لأن الله يحب الظالمين ، ويكره المؤمنين ؟ لا !

إذن (والله لا يحب الظالمين) لئلا يظن ظان أن انتصار المشركين في تلك الغزوة من محبة الله لهم ، فبيّن الله عز وجل أنه لا يحب الظالمين . ص٢٢٤ .

٧ ـ قال تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل)

في هذه الآية جواز موت الرسول وإمكان قتله ؛ لقوله : (أفإن مات أو قتل) فإن قال قائل : يشكل على هذا أن الله قد قال في الشهداء : (ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) .

فإذا كان هذا في الشهداء فيكف يكون الرسول ميتاً مع أنه أفضل من الشهداء ؟

الجواب عن ذلك أن نقول :

إن الحياة حياتان :

حياة دنيوية جسدية وهي حياة الدنيا ..

وحياة برزخية ليست كحياة الدنيا ، فهذه هي التي تثبت للشهداء .

والأنبياء أفضل من الشهداء حيث حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم ، وأما الشهداء فقد تأكل الأرض أجسادهم ، فالأنبياء أجسادهم باقية وحياتهم البرزخية أكمل من حياة الشهداء بلا شك . ص٢٤٣ .

٨ ـ الله عز وجل ناصر لأوليائه ؛ لقوله تعالى : (وهو خير الناصرين) وهذا من ولايته .

فإن قال قائل : كيف نجيب عما أخبر الله به في كتابه أن من الناس من قتل الأنبياء بغير حق ؟ فالجواب عن هذا من أحد وجهين :

الوجه الأول : أن المراد بالنصر أو الوعد بالنصر لمن أمر بالجهاد ، فإن الله ينصره ؛ لأن الله لا يكلفه بشيء إلا والعاقبة له فيه ، وأما الذين قتلوا من الأنبياء فلم يؤمروا بالجهاد .

الوجه الثاني : أن نقول : إن النصر نوعان :

أ. نصر شخص معين بمعنى أن الإنسان يدركه بشخصه .

ب. نصر معنوي بمعنى أن الله ينصر من جاء بهذا ولو بعد موته .

ولهذا نجد أقوال الأئمة ـ أئمة المسلمين ـ كأنهم أحياء بيننا ، أقوالهم حية فكأنهم أحياء ، إذا أخذت كتاباً لعالم من العلماء وقرأته وانتفعت به فكأنما درّسك هذا العالم ، إذن هذا نصر ، نصر لمبدئه وهدفه ودعوته .

وجه ثالث أيضاً : أن نوزع النصر على الزمن ، فنقول : إن النصر قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة ، والذين قتلوا من الأنبياء سوف يكون نصرهم في الآخرة عندما يختصمون مع أقوامهم ، فإن أهل الحق وأهل الباطل يوم القيامة يختصمون عند الله ؛ يختصمون فيقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون . فلا تظنوا أن الخلاف الذي يقع بين أهل الحق وأهل الباطل ينتهي بالدنيا ، كلا ، سوف يحكم الله بينهم يوم القيامة وينصر أهل الحق (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم) ، (إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ، والآيات متعددة تدل على هذا (إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، إذن إذا حكم الله لأهل الحق على أهل الباطل يوم القيامة فهذا نصر . ص٢٩٠ ـ ٢٩٢ .

٩ ـ المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة ؛ لقوله تعالى : (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) وإلا لكان يقول : (وعصيتم) فقط ، لكن كون المعصية تقع بعد أن أراهم الله ما يحبون هذه أعظم ، أعظم مما إذا لم يكن الله قد أراهم ما يحبون . ص٣١٣ .

١٠ ـ قال تعالى : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) .

إن الإنسان الذي لا يكون له هم إلا نفسه في هذه المواطن قد يُبتلى ـ والعياذ بالله ـ بهذه البلوى العظيمة ، وهي أن يظن بالله غير الحق (يظنون بالله غير الحق) .
وقد ذكر ابن القيم في (زاد المعاد) أنواعاً كثيرة من الظن بالله غير الحق منها :

أنهم ظنوا أن هذه الهزيمة لا انتصار بعدها ، وهذا ظن سوء ؛ فكل من ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة فقد ظن بالله ظن السوء ، ومن أراد أن يرجع إلى كلام ابن القيم في زاد المعاد فهو كلام جيد لم يوجد لا في كتب التفسير ولا في كتب التاريخ . ص٣٣٧ .

١١ ـ قال تعالى : (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) قد يكون في هذه الآية إشارة إلى أن الشهداء يدفنون في مكان استشهادهم ؛ لقوله : (لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي في أماكن قتلهم . وهذا إن لم تفده هذه الآية فقد استفيد من السنة ، فإن قوماً من الصحابة حملوا قتلاهم في أحد لدفنهم في المدينة فأمر النبي بردهم إلى مصارعهم يدفنون هناك فدفنوا في أحد . ص٣٣٨ .

١٢ ـ التشبه بالكفار اختلف فيه العلماء ، فذهب أصحاب الإمام أحمد في المشهور عنهم إلى أن التشبه بالكفار مكروه ، والمكروه عند الفقهاء كراهة تنزيه ، أي يثاب تاركه امتثالاً ، ولا يعاقب فاعله ، لكن قولهم هذا ضعيف . والصواب أن التشبه بالكفار حرام ..

ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية حديث : (من تشبه بقوم فهو منهم) في كتابه القيم الذي أشير به على كل طالب علم وهو (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لما ذكر هذا الحديث قال : وأقل أحوال هذا الحديث التحريم . ص٣٥٠ ـ ٣٥١

١٣ ـ (من بورك له في شيء فليلزمه) يعني إذا عمل الإنسان عملاً ورأى فيه البركة والثمرة فليلزمه ، ولنضرب لهذا مثلاً بحال طالب العلم الذي شرع في دراسة كتاب أو مراجعته ، ووجد فيه خيراً ، ووجد أنه يستفيد وينتفع ، فنقول له : الزم هذا وأكمله ، ولا تقل : هذا كتاب مختصر قليل ، كمن شرع في مطالعة كتاب (زاد المستقنع) ، ورأى فيه بركة ، وانتفع به ، إلا أنه لم يكمله وقال لا يكفي هذا ، أريد أن أطالع (الإنصاف) ، ثم قال : لا يكفي هذا ، أريد أن أطالع (الإنصاف) ، ثم قال : لا يكفي هذا ، أريد أن أطالع (المغني) ، هذه طريقة غير مجدية ، بل إذا بارك الله لك في شيء فالزمه حتى لا يضيع عليك الوقت .

وهنا مسألة أيضاً قد ترد وهي :

أنه يريد أن يطالع مسألة في الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فيراجع الفهرس حتى يقع عليها ، ثم يلاحظ مسألة ثانية ، فيذهب ينظر فيها فيضيع عليه الوقت ، ولهذا كان من حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن يبدأ بالشيء الذي يريده ، لما دعاه عتبان بن مالك رضي الله عنه ، ليُصلي في مكان بيته يتخذه مصلى ، خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه ، فلما دخل البيت قال : يا رسول الله ، قد صنعت لكم طعاماً . قال : (أين تحب أن أصلي من بيتك ؟) ، سأله قبل الطعام ، لماذا ؟ . لأنه جاء لهذا الغرض . فابدأ بالغرض الذي أتيت إليه ، فهذه المسألة ينبغي للإنسان أن يجعلها على باله في تصرفاته في العلم وفي الدنيا أيضاً . وهذه نأخذها من قوله تعالى : (فإذا عزمت فتوكل على الله) . ص٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

١٤ ـ الإنسان إذ عمل العمل وسعى فيه ولم يكمله كتب له أجر كامل ، ولهذا شواهد منها قوله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) ، ومنها قوله النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً) فالإنسان إذا سعى في العمل ولكنه لم يدركه فإنه يكتب له أجره كاملاً ، حتى طالب العلم لو مات قبل أن يدرك ما يريد من العلم فإنه يكتب له ما نوى ؛ لأنه شرع فيه وعمل ما يقدر عليه فينال الأجر . ص٤٥٢ .

١٥ ـ قال تعالى : (وأن الله ليس بظلاَّم للعبيد) وجاء في الحديث : (لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأرضه ، لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم) .

فلنا في هذا الحديث مخرجان :

الأول : أنه يعذبهم وهو غير ظالم لهم ، أي لا يُعذبهم إلا لذنب ، فيكون الحديث مطابقاً للآية.

الثاني : أن المراد بذلك مناقشة الحساب ؛ لأن الله لو ناقشهم لكانت نعمة واحدة من نعمه تُحيط بجميع أعمالهم ، فيبقون وليس لهم رصيد .

فإن قال قائل : هذه صفة سلبية كما يقولون ، فهل توجد الصفات السلبية في صفات الله ؟

فالجواب : نعم ، ولكن المراد بالصفات السلبية : ثبوت كمال ضدها ، فهو لا يظلم لا لعجزه عن الظلم ، ولكن لكمال عدله . ص٥٠١ ـ ٥٠٢ .

١٦ ـ قال تعالى : (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رُسُلٌ من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) .

إن قال قائل : لماذا عدل الله عز وجل عن المطالبة بصدق ما ادَّعوه ؟

قلنا : هذا من باب موافقة الخصم ، يعني على فرض أن الأمر كما قلتم فقد اعتديتم حتى فيما جيء به من مطلوبكم ، فاعتديتم على الرسل .

وهنا فائدة وهي : أن من ادعى دعوة فإننا نعامله بمراتب :

المرتبة الأولى : صحة ما قال .

المرتبة الثانية : مخالفته لما قال .

فهنا لم يُطالبهم الله بصحة ما قالوا من باب موافقة الخصم ، وقولنا من باب موافقة الخصم أحسن من قولنا من باب التنزل ؛ لأن الذي معنا قرآن ، وإن قلنا : تنزّل فإنه بناء على العبارة المعروفة عند العلماء .

والمعنى أن يقول : هب أن الأمر كما قلتم وأنه عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار ، فقد جاءكم رسول بقربان تأكله النار ومع ذلك قتلتموه ، إذن فطلبكم هذه الآية المعيّنة ليس عن صدق ؛ لأنها قد جاءتكم ومع ذلك فقد كذبتم الرسل وقتلتموهم ، فهنا عدل عن المطالبة بصحة الدعوى ، من باب موافقة

الخصم ، أي أنكم لا تريدون أن تُصدّقوا الرسل ، وإنما تريدون تكذيبهم . ص٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

١٧ ـ قال تعالى : (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) .

وهنا فرق بين الأذية والضرر ، قد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر منه ، ولهذا أثبت الله أن عباده يؤذونه ، أي من عباده من يؤذيه ، ونفى أن يكون أحد يضره ، فقال الله تعالى في الحديث القدسي : (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) . وقال تعالى في الحديث القدسي : (يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر) فأثبت الأذية أيضاً ، أما الضرر فلا . ص٥١٨ ـ ٥١٩ .

١٨ـ التنبيه على فضيلة العزم في الأمور ، لقوله تعالى : (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وكل ما كان الإنسان عازما في أموره كان ذلك أنجح له وأحسن . ص٥٢٣ .

١٩ـ المسلم إذا فرح بما أنعم الله عليه من العمل وأحب أن يحمد بما يفعل لا رياء ولكن من طبيعة البشر أنه يحب أن يحمده الناس ، فإن هذا لا يدخل في الآية ، فالذي يدخل في الآية صنفان :

الصنف الأول :

أهل الكتاب الذين فرحوا بما أتوا من كتمان صفة البني ص وعدم الإيمان به ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا حيث يتظاهرون للناس بأنه لو جاء الرسول الذي بشر به عيسى لآمنا به .

والصنف الثاني :

المنافقون ، فإن المنافقين يفرحون بما أتوا ويقولون : نحن أسلمنا أمام محمد وأصحابه وهم على العكس من ذلك ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الإخلاص والمحبة الله ورسوله واتباع رسوله ص . ص٥٣٠

٢٠- قال تعالى : (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار) اختلاف الليل والنهار على أي وجه من الاختلاف يراد ؟!.

الجواب : أنه يراد اختلافهما من وجوه شتى :

أولا : من جهة أن الليل ظلمة والنهار نور ، وهذا من آيات الله .

ثانيا : كذلك أيضا اختلافهما من جهة الطول والقصر . أحيانا يطول الليل ، وأحيانا يطول النهار ، وأحيانا يتساويان .

ثالثا : اختلاف الليل والنهار يدخل فيه اختلافهما حرا وبردا ، أحيانا يكون هذا حارا وهذا باردا ، وأحيانا يتساويان .

رابعا : ومن ذلك أيضا اختلافهما في الرخاء والشدة . أحيانا تمر بك الأيام رخاء ، وأحيانا تمر بك الأيام شدة .

خامسا : من هذه الآيات : اختلافهما في العز والذل والنصر والخذلان . ص٥٣٩.

٢١- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل من أحسن الحواشي التي كتبت على شروح ألفية (ابن مالك)، لأنه متأخر وجمع أقوال من سبقه ، وله تحرير جيد في بعض الأشياء التي يحررها ، فأشير بها على كل من أراد أن يقرأ ألفية (ابن مالك) وشرحها (لابن عقيل). فإن هذه الحاشية مفيدة . ص٥٤٣ .

٢٢- قال تعالى : (لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) فإذا أثنى على المتفكرين في الخلق ، فالمتفكرون في الشرع من باب أولى ؛ لأن الشرع ليس أمرا محسوسا ، فالتفكر فيه أبلغ في الإيمان من التفكر في الخلق . الخلق أمر محسوس كل إنسان يدركه ، لكن حكم وأسرار الشرائع ليس لكل أحد أن يدركها . ص٥٤٧ .

٢٣- قوله تعالى : (فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا).

السيئات طلبوا تكفيرها ، والذنوب طلبوا مغفرتها ؛ لأن السيئات : هي الصغائر ، وهي تكفر بالأعمال الصالحة ؛ بالطاعات ، ولا يمكن أن تكفر بالطاعات إلا بعد أن

تكون الطاعات على الوجه الأكمل ؛ لأن الطاعات إذا نقصت لم تقو على تكفير السيئات . إذ إن الإنسان قد يفعل الطاعة ولا يحصل له منها إلا إبراء الذمة ، لكن لا تقوى على التكفير حتى تكون تامة بقدر المستطاع ، ولهذا قالوا : (وكفر عنا سيئاتنا) بما نفعله من الأعمال الصالحة .

وهم طلبوا من الله تكفير الكبائر والصغائر ؛ لأن الكبائر لا تكفر ، وإنما تحتاج إلى مغفرة من الله ، إما مجرد فضل منه ، وإما بعمل أسباب كالاستغفار والتوبة حتى ترفع حكم هذه الكبائر .

فإن قال قائل : هل في هذا الدعاء جواز الدعاء بالموت ؟..

الجواب : ليس كذلك ، فمعلوم أن الله لن يتوفاهم إلا إذا جاء أجلهم ، وليس فيها أنهم يتمنون تقديم الوفاة ، وهذا نظير قول يوسف عليه الصلاة والسلام : (أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) يوسف :١٠١

ليس المعنى أنه يسأل الله أن يتوفاه الآن ، بل أن يتوفاه على الإسلام متى جاء أجله ، وكذلك قول مريم : (قالت يا ليتني مت قبل هذا) ليس معناه أنها تمنت الموت بل تمنت أن هذا لم يقع ، يعني معناه نقول : يا ليتني مت وأنا ما رأيته . ص٥٥٥ ـ ٥٥٧ .

٢٤- بيان أن رسول الله ص بذل الجهد في دعوة الخلق إلى الحق ؛ لأن النداء يكون برفع الصوت ، فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس بأعلى صوته يناديهم للإيمان . ٥٥٧ .

- - - - - - - - - هذا ما تهيأ إعداده وتيسر إيراده من فوائد هذه السورة الجليلة ..